الحداثة في ظل الإسلامية

عبد العزيز حمودة نموذجا "

عبد القادر فيدوح

جامعة – قطر

في ضوء المرايا

ليس من شك في أننا لا نحتلف مع من يتصور أننا نعيش عصر المعايير المزدوجة ، والزيف على حساب القيم الفاضلة ، وقد لا نستغرب من مساعي بعض المفاهيم[1] الغربية المسعورة وما تجلبه لنا من قناعات قد لا تصلح لبيئتنا ، بخاصة ما يتعلق بالجديد ، في حين تكمن وجاهة رؤينا في غرابة ما يأتي من شرايين جسم الحداثة الغريبة ، في انحرافات ، هذه الشرايين التي تنقل مرض ما يعتري تربتنا من نخر ، لاسيما أولئك " **المتغربين** " الذين تزعمون الحداثة بشقيها الذاتي / المادي ، وما ينتج منهم من ضرر أكثر بكثير مما يمنتج منهم من نفع ، كونهم من صنع هذه الحداثة المزيف ، وبدوافع كثيرة – سواء منها اللغة ، أو الثقافة الوافد إليه ، أو المصالح النفعية – يشتغلون على محاولة تعليب نسقنا الثقافي وفق إرادة مريديهم، أو مصالحهم .

من هذا المنظور سوف نقف مع نخبة نأت بنفسها عن هويتها طلبا لشفاعة الحداثة التي يتكلمون باسمها من حيث موقعهم في المكان عينه ، وتحديدا[2] ممن تبنوا تيار التغريب في أبعاده السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية بهدف بسط نفوذ الحضارة الغربية المادية على حساب ثقافة المصدر ، وتغليب فكرة فصل الذاتي عن الموضوعي . وفي ظل هذا الانفصام والتصدع – الذي أدى بالحداثيين ، المتغربين، إلى إبعاد التوازن بين ما هو عقلي وما هو روحي – يجدر بنا أن نطرح على أنفسنا جملة من لأسئلة ، لعل أهما : كيف نستلهم من هذه الحداثة رشدها والإمعان فيه بعد أن تعمق

---

[1] نستثني من ذلك النظريات والمفاهيم العلمية التي وضعت في خدمة الإنسان والتنمية ، وتطوير العملية الإنتاجية والأساليب المستخدمة فيه .

[2] مع تحفظنا الشديد على من يشتغل بنوايا حسنة هدفهم الإفادة من محاسن الحداثة ومنافعها في توجهاتها السليمة ، ونقض سلبياتها .

غيُّها وتبحرت فيه ؟ وكيف يمكن تمييز الصالح من هديها والطالح من خيبتها، مادام لم يتحقق ما كان مأمولا ومطلوبا من مقاصده .

و ذا كان ذلك كذلك فإننا سوف نستند ، في دراستنا هذ ، إلى تشخيص الظاهرة في ضوء ثقافة التجاوز والاستلاب الي انتقدها عبد العزيز حمودة من خلال الوسطاء الذين تبنوا الترويج للحداثة وما بعده ، ونصبوا أنفسهم أوصياء على ثقافتنـــ ، وأرادوا تكريس التزييف ، استئناسا بثورة الحداث ، كونها في نظرهم ــ جملة وتفصيلا ــ أداة تنوير ، والترويج لها بهذه الصفة هو علة كل دا ، كمن " **يتداطى علاجَ داءٍ عَيَــا** ، لا لشيء إلا لأن أكثر ما جاء في الحداثة وما بعدها عديم العلاقة مع مطلوب الهوية ، على النحو الذي أثبته عبد العزيز حمودة في مواقف كثيرة من كتب . وأنا هنا لست في موقع الدفاع عن هذا الرجل النا ، والمحتش ، فكتبه وآراؤه أجر وأحق ي الــدفاع عــن نفسه ، كما لن أسوغ لنفسي أن أنوب عنه بانتزاع صفة وكالة الحديث باســم آرائـــ ، اعتقادا مني أن كل كلمة دفاع عنه لا تغنيه حق ، وما يغني عنه رأيي شيئ ، أو قــد لا تكون في مستوى طرحه الفائض عن طلب الحاج ، والفائر من غضب اللزو ، والثائر على ما حلَّ به من ردود أفعال رأى فيها غبنا على الهُوية الثقافية .

سديم اللاجدوى

منذ رواج مصطلح الحداثة والنسق الثقافي لدى أنصارها وهي محل المساءل ، هذه المساءلة التي لم تهدأ على حال ، ولم تصل إلى نتيجة كثر من تمكنها من الزيــ ، والمخاتل ، خلخلة منظومتنا الثقافية الإسلامية ، وحلحلتها إلى التيه في نفق مظلم بفعل الدعوة إلى التجديد ، ونبذ التراث ، أو طمس آثاره في حالات كثير ، كما يحلو للــبعض أن ينصبوا أنفسهم قضاة لمحاكمة رصيدنا الثقافي الإسلامي من باب مراجعـــة هــذا التراث ، ومساءلت ، ومن ثم تجديد ، وهذا في حد ذاته نوع من التجني علـــى الـهويــة والمغالطة في الطرح .

وإذا كان الفكر الغربي قد انطلق من تمحيص واقعه بما أهله لتدارك تجاربـــ ، لما لهذه التجارب من مواصفات ، ونظامها الثقافي وقواعدها الخاصة تتعلق بظـــروف اج ماعية وفكرية مرت بتحولات جم ، ذا كان الأمر كذلك عند الغرب ، فإن الخطاب العربي الإسا مي ــ وفق هذا المنظور ــ لا يعدو أن يكون وميضا يطفو على أهداب واهي ، أو لا يتجاوز كونه ر جْعاً لأصداء عديمة التأثير، إلى غير ذلك من معظم مـ ا جاءت به الحداثة من مفاهيم طافية لم ترسخ حتى في بيئتها ، ناهيك عن كو ها تحـــاول عبثا رسو ها في بيئة خرى ، أو زرعها في تربة غير التربة التي أنشئت فيها .

وهذا لا يعني أننا في غنىً عن الإفادة من كثير من عناصرها ومميزاتها البناءة منها على وجه الخصوص ، والتي من شأنها أن تسهم في التنمية البشـــرية ، والعمـــل الحضاري المتكامل بين الشعوب والأمم .

وم ن هنا يمكن اعتبار أية حداثة تفتقر إلى لقابلية الذاتية ، أو القابلية الواعيـــة ، وتنفصل عن مقومات الشخصية الوطنية أنها تفقد قيمتها ، وتصبح بذرة فاسدة لا تصلح لهذه التربة ، في حين تصبح ذاتَ قابلية عندما يكون لها معنى وقيمة إنسانية ، وقـــادرة على احتواء التواصل والسيرورة لتشرئب إليها الأنظار ، بعدما ترى في جوهر الثقافة كونها رؤية إنسانية ، وليست رؤية استهلاكية .

ولكن، هل الحداثة واحدة ؟ وكيف السبيل إليها من المنظور الإسلامي ؟

تشير الدر سات المتعمقة إلى أنها حداثات متنوعة ، وقد تكون ــ أيضا ــ كـــل حداثة تتز ا بأوجه مت دد ، وتتق ع بأقنعة مستجدات الحدث؛ الأمر الذي يؤشر سلبا على استتباب أمن المصطلح ويزرع فيه الفوضى وعدم الاستقرار ، نظـــرا إلـــى لســـرعة القصوى التي تعمل فيها المعرفة . وإذا كان عدم استقرار الوعي المعرفي على حـــال معينة في الغرب ، نظرية ؛ لغياب ' **موضوع الحقيقة** ' و " **إبعاد المقاصد** " فإن الأمـــر مختلف تماما في ثقافتنا التي يصبح " **المعنى** " فيها عنصرا مترابط ، ونسيجا متحد مـــا في ما قبل ، وباعثا تنظيميا لما بعد ، ويصبح ما يؤسسه التـــاريخ يســـتوجب تـــرابط

الاتصال ؛ لأن كل نسق لاحق يتعزز بما سبقه ــ في نظر الكثير ــ وهو ما يعطي الهوية إمكانية الاستمرار والثبات ؛ ، لأن علاقة حاضر بالماضي هي علا ة سببية بفعل أداء الأعمال المنجَزة التي يحققها كل عقل منشئ لهذا العمل أو ذاك ، أو لديه الرغبة في إنشائ ، وهي علاقة ذات غاي كون هذا الفعل متطلعا إلى المستقبل ، ، كون المستقبل محركا لهذا الفعل من خلال الوجود الذهني الذي يرسم للفاعل غايته ؛ أي من خلال الفكر . ومن هذ ، تتكون دائرة السنن النوعية للتاريخ ، والتي موضوعها ذلك الجزء من الساحة التاريخية الذي يمثل عملا له غاي ، عملا يحمل علاقة إضافية إلى العلاقات الموجودة في الظاهرة الطبيعي ، وهي العلاقة بالغاية والهدف ، بالعلة الغائي ، وفي هذه الحال يستوجب ثلاثة أبعا ، بعد السبب والعل ، وبعد الغاي ، وبعد العمل الذي يكون حاملا لعلاقة مع هدف وغاي ، ويكون في الوقت نفس ه ذا أرضية أوسع من حدود الفرد ؛ أي ذا موج يتخذ من المجتمع علة مادية ل ، وبهذا يكون عمل المجتمع [3] المحكوم بالحتمية الدقيقة التي تربط وحدة سبب بالمسبب في هذا الواقع المتجدد والمستمر من حيث لا ينفصل بعضه عن بعض إلا في الغاي ، وذلك لأن العلة الغائية هي امتداد متغير ومتجانس مع متطلبات ومستجدات الحياة وبالنسبة إلى مقاصد كل واقع، وهذا ما يميز العلاقات المتبادلة بين كل واقع وآخر بوصفها متغيرات من ن إلى آر ، ومن مرحلة الإمكان إلى مرحلة التحقق والإنجاز، ومن فعل التأسيس إلى التكوين الحضاري بالتدر .

إن دعوة التنويريين إلى اللحاق بمزاعم ما بعد الحداثة يبرر انتهاك الذات في هويته ، وإخضاعها للتبعية، ولتكون أداة لمصالح الحداثة الأصل ' الغرب ، ومن ثم فإن لحداثة بالنسبة إليهم هي حداثة أفكار مجردة من محتواها الفعلي ، أو من أي نشاط إجرائي ، كونها نابعة من معين غير معيننا، وما لم تجد هذه **النزعة الحداثاوية** ، في ساحتنا العربية والإسلامي : الأرض الخصبة المناسبة لها ــ وهذا مستبعد ــ ستظل غريبة؛ لأن هذه الحداث ، وما عده ، لم تتشكل من داخل البيئة العربية الإسلامي ، أو بالأحر ى لم نسهم في تكوينها أو بلورتها، كما أنها لم تحفر في خصوصية المرجعية

[3] ينظر ، اقر الصدر : مقدمات في التفسير الموضوعي ص 7' .

التاريخية ليستمد منها مقوماتها حتى تستطيع مواكبة الركب ، بفعل حفرياتها الذاتية كما وقع في الغرب . ولعل هذا ما عبر عنه إيمانويل كانط E. Kant بمفهوم القبلي الذي يعد شرطا لتأسيس التجربة ، ويحدد أيضا وظيفة النقد بوصفها آلية منهجية يراعي النسق الثقافي ضمن إطار هوية ، لها قواعدها، وخصوصية وجودها على أن يكون ذلك بحسب **Michel Foucault** فوكو وفق أنساق التحولات . وانطلاقا من هذا المنظور تكون ثقافتنا الإسلامية في غنى عن هذا الجنس الغريب ، كما أنها في غنى عن الوسطاء من التنويريين الحداثويين ممن تغربوا .

أما أن تكون ثقافتنا الإسلامية مجتر ، ومكرور ، ومنغلقة، فالخطأ لا يكمن في الثقافة بقدر ما يكمن في تشخيص السبب الذي يعود بالدرجة الأولى إلى هؤلاء التنويريين أنفسهم، وهنا تحضرني مقولة لأحد الأساتذة الذين عايشوا مالك بن نبي ، حيث ذكر هذا الأخير أنه حين كان يأوي إلى أحد الأحياء السكنية الجامعية في باريس في الخمسينات كان الطلبة الجزائريون يجتمعون في إحدى الغرف فيقضون ليلهم في المسامرة ولعب الورق ، في حين كانت هناك غرفة مجاورة للطلبة اليابانيين الذين كانوا يجتمعون كل أسبوعين فيترجمون محاضراتهم ودروسهم من الفرنسية إلى اليابانية ويرسلونها إلى بلادهم ، فأين هي إذن غيرة هؤلاء الحداثيين ، وحاملي شعار التنوير الفكري وهم يلهثون للسعي إلى التلبس بلبوس ما بعد الحداثة ؟

لذ ، فإن أية حداثة ، أو أي جهد ، لتحقيق هذا المسعى ما لم ينطلق من قاعدة ، كما كان عليه الشأن في الغرب ، لا يكتب له النجاح ، وهذا لا يعني أننا نسلك نهج من ينكر التأثر بالفضاء المناسب لما تأتي به رياح الآخر في حدود ما ينسجم مع هويتنا ، وما تستوجبه الحاجة لتعزيز مكوناتنا التي نسعى إلى تطوير بنياتها ضمن إطار الاعتماد المتبادل بين المعارف والثقافات ، ولعل هذا ما جعل جمال الدين بن الشيخ يقول : إني أشعر بالمرارة لكون الطلبة والنقاد العرب يظنون أن التجديد مرتبط

---

[4] ينظر . مصطفى بن حموش : مالك بن نبي ، دورة الحضارة والمواعيد الضائعة ، موقع مالك بن نبي ، الرابط www.binnabi.net

بالاطلاع على آخر الموضات الفكرية النقدي ، ومن ثم ولعهم بتـــرويج المصـــطلحات الغربيا .

لقد كان حريا بهؤلاء التاثر بالغرب والافادة من ثقافت ، بخاصة ما يفيد، لإنتاج فكر قومي وصناعة مفاهيم نابعة من أسئلة الفكر الإسلامي ومنابعه الثـــرّ ، تحـــاذي الوقائع الفكرية المنتجة في جميع المجالات ثقافيا، وفكريا، واقتصاديا، واجتماعيـا ... وكل ما يتعلق بإدارة أفكار الأمـ ، وإخضاعها إلى الممكنات التي تعكس خصوصيته ، لا خصوصية غيرها بغرض تشخيص الوقائع وتجاوزها إلى ما هـــو أفيـــد وأســـمى ، تباع .

نفق الـ ـه

من الخطأ أن ننجر وراء ميدان الوصف الحفري بالشكل المفرد ، و' **ترك الحبل على الغارب**" على ا نحو الذي دعت إليه الحداثة الغربي ، ومن ضمن مفكريها فوكـــو **Michel Foucault** الذي درس الممارسات الخطابية علـــى أســـاس " **المنظومـــة المعرفيا**" بوصفها أرضية فكرية تتبدل وتتنوع ، تظهر وتختفي معالمها بحسب تطـــور الأزمنة وتوالي الأجيال ، وبحسب تطور الاستراتيجيات المعرفية التي تـــرفض الـــرابط السببي بين السابق واللاحق ؛ لأن وراء هذا الانسياق هدم للذاكر ، و خلخلة مرجعيته ، وتناثر ثقافتها، واهتزاز مبادئها، وفي ذلك إقصاء للمضامين والدلالات والقيم المعرفية، وإلغاء سياق ما كان عليه السابق ، في مقابل ما نحن بصدد تأسيسه من جديـــد، وهـــذا محال أن يكون الجديد بمعزل عن القدي ، ولا أن نكون كما ينبغي على حساب الوثيقـــة المرجعي ، وبهذا يكون " الانبهار بمنجزات العقل الغربي ، في حد ذات ، ليس خطيئة لا تغتفر، لكنه يصبح كذلك حينما يُقرن بالتنكر للتراث الثقـــافي العربـــي الإســـلامي أو المنادا ، كما تفعل النخبة، بضرورة حدوث " **قطيعة معرفية** " كاملة معه كشرط لتحقيق التحديث والحداث .[5]

[5] المرايا المقعر ، 13 .

ولعل الخوض في مثل هذا التصور يمثل أعلى درجات التصدِ ، والدخول في متاهات الانفصال في تباين المتصل وتباعد بنياته ، وتيهان الانفصام في قطع لتواصل مع الماضي وفقدان الشخصية، وتكريس فكرة الاختا ف من أجل الاختلاف ، في حين أن ما من معرفة ــ كانت أو ما زالت ــ إلا وهي محل فعل اتصال وتواصل . وهذا ما جعل عبد العزيز حمودة يعرب عن رأيه بصورة متذمرة من موقفه من الحداثيين العرب ، معتبرا " أننا حينما نستخدم مفردات الحداثة الغربية ذات الدلالات التي ترتبط بها دا ل الواقع الثقافي الحضاري الخاص بها، نحدث فوضى دلالية داخل واقعنا الثقافي الحضاري . وإذا كنا ننشد الأصالة فقد كان من الأحرى بنا أن ننحت مصطلحنا الخاص بنا ، نابع من واقعنا بكل مكوناته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ لأن الهوة بين الواقعين الغربي والعربي و سعة سحيقة ، لا يكفي الادعاء الأجوف بإقامة جسور فوقها لأن ينسينا إدراك الاختلاف . وحينما ننسى ذلك الشعور بالاختلاف نقع في المحظور لأننا نتناسى مجموعة من المحاذير التي تجيء مع هذا الإحساس بالاختلاف .

إننا نعتقد أن المغالطة لدى كثير من التنويريين كانت تتوزع بين الحداثة والتحديث على نحو متناظر ، وكأن نظرتهم تتقمص التحديث في وجهه الحداثي الذي يميل إلى الارتباط بالآخر المتعسف ، في وقت كان يمكن الاعتماد على المظهر الذاتي الذي ظهر الذات بوصفها أداة متحررة في أفكارها من الآخر . وفي هذه الحال يكون الدارس مدعوا لأن يقدم ما هو في عمق مشاعر الذات من خلال طلب الحاجة المناسبة المجردة من أية أيديولوجيا ، على النحو الذي دعت إليه الحاثة في سياقتها الإجرائية مع واقعنا فكرا وسلوكا .

ولكن ، إلى أي مدى استطاعت الإيديولوجية أن تتغلغل في نفوس الحداثيين لتحول فكرة التحديث ــ التي كانت مطلبا طبيعيا ، بحسب سنن الحياة ــ إلى فكرة

---

[6] عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة ص 14 .

الحداثة التي عكستها الإيديولوجية في واقعنا العربي الإسلامي ؟ ولماذا استخدمت خصيصا لضرب التراث .

هذه هي الجدلية التي أخذت حيزا معتبرا في خطابنا المعاصر باسم الحداثة ، وحمّل أصحابها التراث ، في ضوئها، مسئولية تعطيل العقل العربي الإسلامي ، واعتباره عائقا يقف في وجه كل تحديث [!..] ومازالت الإشكالية مدار الجدل بين الكثير من أنصار الحداثة وخصومها . غير أننا نعتقد أن الإحساس ـــ فقط ـــ بالتفكير في الخوض في هذه الجدلية العقيمة مدعاة لضياع الوقت و هدر الجهد . ولعل ما يدعو إلى الدهشة هو الخلط بين مصطلحي الحداثة والتحديث في سياق النسق الفكري لدى الكثير من الحداثيين العرب ، فإذا كان مصطلح التحديث موجودا منذ أن كان التفكير ، على اعتبار أنه مقرون بالمجايلة Generation على مر العصور ، فإن الحداثة التي لم نسهم في نشأتها هي ثورة فكرية تسعى إلى التغيير الجذري لثقافة السابق ، القبلي، والدعوة إلى التمرد على الواقع بكل أشكاله ، وهذا ما جعل عبد العزيز حمودة يقول : " إن الربط بين " **الحداثة** " و " **التحديث** " كان هو الخديعة الكبرى التي قام بها الحداثيون العرب عندما وجهوا الرغبة الشعبية الشاملة في التحديث، بعد الهزيمة العسكرية، في اتجاه تبني الحداثة دون أن يدركوا، إذا افترضنا حسن النية، أو في تجاهل متعمد، إذا افترضنا سوء النية، أن التحديث لا يعني " الحداثة " بالضرورة، وأن هناك اختلافات جوهرية بين ثقافة الحداثة الغربية والثقافة العربية[7] .

إن الحداثة ممارسة ، وليست بناء نظريا لمعقولية الأفكار المستورد ، أضف إلى ذلك أنها خطاب يعكس نسيج هذه الممارسة لفعل الإنتاج الذي تجسده الذات، ومن ثم فإن كل ما يقال من حداثة وظيفية لا قيمة له إن لم يمر عبر جسر الممارسة المنتجة ، هذا الجسر الذي يحمل الرقيب على كل ما هو مشوش للذات ، وإمكانية توظيف الصالح من استقطاب منافعها خدمة للمصلحة الوطنية ، والهوية ، على وجه التحديد، والكشف عن ملابسات أوجه الائتلاف والاختلاف بين دوافع ثقافة المصدر وثقافة الهدف ، أي

[7] المرايا المقعرة ص 9!.

ثقافة الذات وثقافة الآخر . وإبراز ممارسة كل ثقافة لها إمكاناتها الخاصـــ ، وتفاعـــل بعضهم ببعض . وقد أشار شكري عياد إلى أنه ' لا شيء أصعب من أن ننظـــر إلـــى الحقائق كلها في وقت واحد، فكم يكون الاختيار سهلا لو تعامينا عن بعضها ; وأصحاب الحداثة ــ كبارهم وصغارهم ــ يتجاهلون نقائص الحضارة الغربية ، مع علمهم بهـــذه النقائص ، كأن إيمانهم بتفوق العقل الغربي ونجاح المجتمع الغربي بلغ حـــد الإيمـــان بقدراتهم على التغلب على جميع المشكلات أو كأن التفكير في نقائص الحضارة الغربية يجب أن يؤجل إلى أن نصبح جزءا من هذه الحضارة بالفعل .[8]

وقبل ذلك ، كان علينا أن نسأل : ماذا جلب لنا هؤلاء الحداثيون ، بخاصـــة مـــنهم المتغربين، من منافع تعكس مكامن جوهر الحقيقة الإنسانية ، غير تأكيد النزعة الفردية التي اتخذت شكل الإسهام في التحلل والتفكك . ولنا في هذا مثال تركيا بوصفها دولـــة مسلمة تتشابه في تعاطيها مع الحداثة على النحو الذي يتعاطى فيه حداثيون ، وفي هـــذا الشأن يرى علي عزت بيغوفيتش[9] Alija Izetbegović أنه " قـــد يبـــدو النمـــوذج التركي الذي جاء به مصطفى كمال أتاتورك مفجع ، ومع ذلك فانه يمثل النمط الغربي لفهم مشكلات العالم المسلم ، كما يمثل الطريقة التي يفكر بها الغربيون والمســـتغربون في معالجة هذه المشكلات . وقد أدى بنا هذا إلى مصير واحد ، هو التغريب والانسلاخ أو الهروب من المشكلات الحقيقية ، ومن العمل الجاد للارتفاع بالناس اخلاقيا وتعليميا ، كما أدى بنا إلى الخارج والسطحي والمصطنع فما الذي يعنيه استقلال دولـــة مســـلمة وقعت دارتها وتسيير حياتها العامة في أيدي هذا النوع من الناس المستغربين ودعـــاة

شكري عياد : المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين ، سلسلة عالم المعرفة ، 993 ، 7 – 8 . وانظر أيضا تعليق عبد العزيز حمودة : الرواية المقعرة ص 32 .

من أسرة بوسنية عريقة في الأسلام [8 أغسطس1925 ــ 19 أكتـــوبر ، 2003] أول رئـــيس جمهورية للبوسنة و الهرسك بعد انتهاء الحرب في البوسنة ، ناشط سياسي بوسني و **فيلسوف إسلامي** ، ألف عدة كتب أهمها : **الإسلام بين الشرق و الغرب** .

الحداثة ! ما قيمة هذا النوع من الاستقلال . وما الذي استفاده شعبها من هذا النمط من الاستقلال والتحرر [0] .

لا نشك في أن معظم هؤلاء الحداثيين المتغربين قد صنعتهم الحداثة وما بعدها على نمط أشكال متشئ ، تحاول حصر ما تبقى من العقل العربي وتحويله إلى أشياء مجردة من القيم الإنسانية في وجودها، ومن ثم فقد وجد هؤلاء الحداثيون ــ في نظر عبد العزيز حمودة ــ أنفسهم في موقع المهاجم بجدل عقيم ، سبقهم إليه المستشرقون من ذوي النزعات المغرضة مواجهة خيارات الرغبة في الوصول إلى المساهمة في بناء الحضارة الخالصة ، والإفادة من توجهاتها السليمة ، ولو كان لدى هؤلاء النية الصادقة في المساهمة ، بتأثير نجاح الحداثة المزعوم ، شركوا في صناعة ثقافة وطنية تستعين بثقافة الآخر الراجحة في البناء والتشييد ، مستمدة من النشاط الفكري ، والوازع الروحي ، والحس الجمالي ، على حد سواء، غير أن الوضع لم يكن بحسب رغبة ــ روح ــ مطامح الهوية ، فشاءوا لا ماشاءت هذه الرغبة في أن يضعوا ثقافتنا موقع الفرجة المشهدية ، والصورة التشهيرية للذات على حساب مصالح ــ في غالبها ــ نفعية .

والحداثة بهذا الشكل ليست انفصالا عن الذات فحسب ، بل هي انفصام عن الشخصية ، قطعُ التواصل مع الهوية ، نصلٌ حاد ينخر ثقافتنا ، وهذا ما جعل عبد العزيز حمودة يعتبر ، بنبرة مُرة ، تحامل بعض الحداثيين المتغربين على هذه الثقافة ، ومطاردة ثوابتها حين قال : " لقد طاردنا الحداثيون من منابع الحداثة الأصلية وفي عالمنا العربي بأفكار براقة ، ومصطلح نقدي أكثر بريقا ، وجذبا لسنوات طويلة . وقد أعمانا هذا البريق عن حقائق كثيرة أبرزها المراوغة المقصودة والغموض المتعمد ، مما جعل الحداثة في نهاية الأمر ناديا لنخبة النخبة [1] .

---

[10] **محمد يوسف عدس :** رؤية المفكر البوسني علي عزت بيغوفيتش ، البلاغ ، الرابط **www.balagh.com**

[11] المرايا المحدبة ص 3 .

وعلى الرغم من شراسة التحديات يؤكد عبد العزيز حمودة أهمية ور رصـــيدنا الثقافي الإسلامي ، والإ ادة من المنابع الثرَّة التي توصل إليها القدامى ، وإمكانية جعْلهـــا سوْغَ النظريات غربية التي لا تبتعد كثير ، في بعض تصوراتها، عن مثيلاتها فـــي مصادر تراثنا ، مادام الغرب نفسه يعترف بذلك بعد أن أذاب كثيرا من المفـــاهيم فـــي رصيده لمعرفي، حين أخذها من مصدرها الأصلي لدى ثقافة الشعوب والأمم الأخرى ، بخاصة الثقافة العربية التي ليّن الغرب ط عها وجعلها في متناول ذوقه، واصطلاحاته، فاحتوى معناها شأن احتواء شخصية أصح بها ـــ من الخ ف ـــ تباء ؛ الأمـــر الـــذي أحدث ديرةً ودهشةً لدى الجيل الجديد ن الحداثيين العرب بصورة أكثر ، حيث لم يكن " في يوم من أيام اتص له بالثقافة والحضارة الغربيتين كثر انبهارا بهمـــا ممـــا هـــو اليو .. وهو انبهار أعمى الحداثيين العرب عن إدراك الاختلافات ، من ناحية، ودفعهم بسبب إيمانهم بضرورة تحقيق قطيعة معرفية مع الماضي كشرط لتحق ق الحداث ، إلى احتقار التراث من ناحية ثانية، ثم الوصول بالتبعية الثقافية للغرب إلى أبعد نقطة فيـــه من ناحية ثالثة، والنتيجة أن أصبح العقل العربي منفعلا وليس فاعلا ".[12]

لقد كان على حداثيينا احتواء أبعاد مضامين الحداثة الفكريـــة النافعـــ ، وقيمهـــا المعرفية النبيل ؛ لمواكبة الركب الحضاري ، ليس بغرض التقليد، أو استنساخ مبادئهـــ ، ولكن بدافع الفهم والاستيعاب رغبة في امتلاك الأدوات الإجرائية ، ومحاولة تطبيقهـــا على واقعنا ، ومشروعنا، إن كان هناك مشروع تحديثي فعلا ، كانوا قد بادروا بتأسيسه . ويجدر بنا هنا أن نضرب مثالا جاء به الفيلسوف والناشـــط السياســـي علـــي عـــزت بيغوفيتش Alija Izetbegović بما فعله كمال أتاتورك في تركيا ويقارنه بما فعلتـــه اليابان ، فقد استطاعت اليابان ان توحد بين تقاليدها وقيمها الثقافيـــة الخاصـــة وبـــين متطلبات التقدم، في حين اتجه دعاة الحداثة في تركيا إلى سلوك طريق معاكس فخلوا عن تقاليدهم وانطلقوا في طريق التغريب . ويتساءل علـــي عـــزت) : مـــاذا كانـــت النتيجة؟ يقول : أصبحت تركيا ـــ لتي كانت في الماضي هي العالم الأول ـــ دولة من الدرجة الثالثة بين كثرة من الدول المتخلفة ، بينام صعدت اليابان إلى قمة العالم الأول .

---

[12] المرايا المقعرة ص 17 .

انطلق الياباني بتواز ه الروحي والعقلي متحمسا في بنـــاء حضـــارة جديـــدة طبعهـــا بخصوصيته الثقافي ، في حين وجدت ا جيال التركية نفسها بلا دعامة روحية تقوّم بها حياتها ، وهالها ذلك الفراغ الروحي لذي أطبق عليها بعد ن فقدت ذاكر تها التاريخيـــة وتوازنها النفسي ، فانهارت وقد خسرت ماضيها ومستقبلها معا . [13]

لا أحد ينكر أهمية التكنولوجيا الحديث ، ومصدرها الغرب، وأهمية دورها فـــي تنمية القدرات البشرية مع تقدم التطورات العلمية وما بها من رغبة جامحة في تواصل اكتشاف منتجات الـ قل التجريبي ، لا يمكن الاستغناء عنها، غير أن هذا شيء وما أفاد الحداثيين من تـ يات هذه الاكتشافات و سوي ها بما يتلاءم مـــع النهـــوض بإمكاناتنـــا وطاقاتنا شيء آخر . ومعنى ذلك أن عدم الاستخدام الجيد لهذه التقنية أدى بهـــم إلـــى الانبهار بالغرب والارتماء في أحضانه، والتعلق بالإفادة من شكليات الحداث ، والتفريط فيي التأثر بمنجزاتها الهادفة والملائمة لأغراض العلم النبيل ، ونتيجـــة لـــذلك يكـــون القصور نابعا بالدرجة الأولى من الذي رعى الحداثة وما بعده ، وتولى أمـــر شـــئون نشرها، عندما انتصر [!..] في إذابة شخصيته في الآخر بالهجر الكامل من ثوابته [4] .

، ترى بعض الدراسات أنه يس هناك حقيقة واحد ، فيما له صـــلة بموضـــوع حداث ، وإنما كل مر حلة تاريخية تصنع حقيقتها لذاتها ، وهذه مغالطة ينفيهـــا العقـــل البشري، وسنن الطبيع ، كما نفتها الفلسفة الهيجلية ؛ لأنها تعبر عـــن انهيـــار ســـبل الاتصال ، وإلغاء ما أنجزه العقل على مر الأزمنة، أضف إلى ذلك أنه اعتراف ضمني بتدمير الهوي ، من منظور أن كل نسق جديد يجعل التفكير في الماضي مستحيلا ، ومن ثم ينعدم المركز المحوري للتفكير، وهذا محال . و ذا كان ذلك كذلك كما دعـــت إليـــه فلسفة المعرفة العقلانية عند الغرب ، فإن محصلة ما ترمي إليه هـــو مـــوت الإنســـان

---

[3] **محمد يوسف عدس :** رؤية المفكر البوسني علي عزت بيغوفيتش ، مرجع شسابق

[4] جاء على لس ن كثير من الباحثين أن الطهطاوي صاغ ثقافة القطيعة مع الله والغيب والدين والبراعة في العلوم الدنيوية شعر ا ذ ل فيه :

أيوجد مثل باريس ديار . .. شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح .. أما هذا وحقك عجيب

المنتِج، واستبدال أعماله به، كونها نتاجات مشتركة، مصدرها النسق الثقافي العام وليس الإنسان في حد ذاتـ ، ويكون نتيجة لذلك هو أن ما عمد إليه أنصار هذه دعو ، وعلى رأسهم فوكو **Foucault** هو تهديم هوية العقل البشري عندما أرادوا له أن يسهم في تدمير الحقيقة وتجميد المعنى .

ومن هنا ينبغي توخي الحذر من أن " القبلي " في مفهوم كـ ط E. Kant بوصفه مرجعية تأسيسية ثابتة ليس مجرد أحداث وقعت نتعامل معها كوقائع تاريخي ، وإنما سبقها وتقدمه ، عن إرادة واعي ، لما يجري في حياتنا ــ وعلى مرِّ الأجيال ــ صفة ملازمة لذ ، ودلالة تشكل مصداقية هويتـ ، ومن ثم فهي قيمة معرفية تسهم في بلورة خطابنا بما ينبغي أن يكون عليه خطاب المصدر في شقه الأول[15] وتوضيحه ونفي الشوائب عنه من وظيفة مصطلح " **الحفريات** " الذي دعا إليه فوكو .

الحداثة عند الغرب ــ وعلى رأسهم فوكو ــ تعتبر موقفا وليست تعبيرا عن حالة زماني ، ونعني بالموقف هنا زعزعة التاريخ " القبلي " ومعايشة لحاضر على أنه سلوك عرضي ، وقتي ، وليس مبادئ وقيم . ولعل هذا ما أثار حفيظة عبد العزيز حمودة وحميّتة، في أثناء تعرضه لنسختي الحداثة في شقيها : العربي الأصلي في كتابه **المرايا المحدبة** ، وذلك حين اعتبر " أن الحداثة الغربية أعادت جدولة العلاقة بين الإنسان والآخر والقوى الغيبي , بين الإنسان والوجود بجوانب . في حين انشغلت الحداثة العربية بعلاقة الإنسان مع لقمة العيش ، مع السلط , مع التخلف الاجتماعي والثقافي . وذلك كله في إطار اختلاف أرض الواقع الثقافي والحضاري التي يقف فوقها النقاد الحداثيون الغربيون عن الأرض التي يقف عليها نقادنـ , مما يسمح لأولئك الغربيين بالتفلسف والتأمل وصياغة نظريات وأفكار حول قضايا تعتبر من قبيل الترف

---

[5] نعني بالشق الأول : العودة إلى الماضي في إيجابياته، ونعني بالشق الثاني ــ من هذا المصطلح ــ بالشك في مرجعية الذات النموذجي .

الفكري) لدينا . فهو ترف لا يشكل غاية من غايات الحداثة في نسختها العربية البائسة .[6] .

ويبدو الموقف حافلا بالنقاط الخلافية بين الحضارتين ، لما بينهما من تباين سواء من حيث الخصوصية الزمانية أو من حيث الحمولة الفكرية التي تشتمل عليها كل منهما في اتجاهين متضادين ، ناجمين من واقعين مختلفين ، يحكمهما التاريخ والموقف الإيديولوجي المتغيرين بين الحداثتين الغربية والعربية، وفي هذا الشأن يقول عبد العزيز حمود : " إن ختلاف الواقع العربي | الإسلامي] وهو واقع تحده بعاد تاريخية واجتماعية واقتصادية محدد ، عن واقع العالم الغربي الذي أفرزه الحداث ، يجعل نقل الحداثة الغربية بقيمها المعرفية الجديدة والمصطلح النقدي الذي تولد عنها إلى واقعنا العربي ضربا من العبث في الدرجة الأ لى [7] .

من هذا المنظور تتعدد مبررات مكمن عطب ؛ وتفكير ، كثير من الحداثيين العرب ، المتغربين، النابع من :

- التشبع بلغة الإداند .
- كراهية التراث .
- تسليم الأمر إلى من يشفع لهم بمزايا نفعية على حساب هوية الذات .
- اعتقادهم إمكان انعكاس رصيد لحداثة ــ حرفيا ــ إلى مواد ن أخرى .
- تقديسهم العقل على حساب التكامل مع الجانب الروحي .
- الرغبة في ا غيير من غير مراعاة الخصوصية المحلية .
- إقصاء خصوصية الهوية .
- الشوزيفرينيا الفاقد ، وحب الظهر بذريعة مقاومة التخلف .
- تبني شعارات ضد عت أصلا لذويها .

---

[16] محمد علاء الدين عبد المولى : مقدمة في نقد الحداثة – بين لبدعة والاختلاف ، الحوار المتمدن – العدد : 1434 – 2006 .

[17] المرايا المحدبة ص 17 .

- تعويض الاغتراب النفسي بالحضور الانتقا ي على الذات .

والحال هذه، أن الحداثي المتغرب في نظر عبد العزيز حمودة يعيش حالتين ، فـــي الحالة الأولى يعيش حضورا زائفا في الغرب ، ناجما عن الرغبة في تأكيـــد الوجـــود هناك ، ومن ثم فإن هذا الحداثي المتغرب يكون فريسة ثقافة الآخر التي أراد أن يخدمها طواعية ، أو مقابل الرضا عنه . وفي الحالة الثانية يعيش حضور الغياب فـــي وطنـــه الأصل ، كونه يرسم هذا الوطن في تلافيف الخيال الموهوم ، والانتقاد المسعور ، بعـــد تأثره بتكنولوجيا الإثارة والمتعة الاستهلاكية ، والتي يراد لها أن تسوّق علـــى لســـانه كمدخل ترويضي .

وما نقوله عن وعي الحادثة وما بعدها في نظر هؤلاء ، نقوله أيضا عن ثقافـــة التقليد الأعمى ، السائد ، وثقافة المصادرة وما تبعها من ثقافة الاستلاب التـــي تتبناهـــا بعض الأصوات المحلية ، كما تتبناه بعض وسائل الإعلام المشبوهة، وكأننا بهم يقودون المسيرة المعرفية ، والمسار الثقافي ، عبر رحلة سفر بوسائل مرضة إلى المجهـــول، وفي حال الارتماء في هذا الانجراف لن يبقى لنا من هويتنـــا إلا قاموســـنا اللغـــوي المشترك لربط الصلة فيما بيننا ، وإذا تمكنت الحداثة ، أو ثقافة الإقصاء من ضرب هذه الوسيلة فمن دون شك أن باقي الثوابت ستتأثر ــ بشكل أو بآخر ــ وسيظل كل جهـــد منقوصا من دون لغة ، ومن دون هوية .

إن ما يهدد ثقافتنا لا يختلف من قريب أو من بعيد على ما يجـــري فـــي بـــاقي المؤسسات الأخرى، سواء أكانت وطنية أم قومية، من هذا الشبح الوارد باسم ما بعـــد الحداثة ، على وجه التحديد ، التي سعى إلى بث الفكر المميت الذي يسلب الشخصية من هويتها ، و بني الشعارات الجوفاء ، والمفاهيم التي لا تصلح إلا لمن بَت ذويها ، استوجبتها مصلحة خاصة ، غالبا ما كان يغلب عليها طابع الرغبة الحسية ، و **نهاية التاريخ** " و " **موت الإنسان** " والعناية بـــ " **الهوامش الاجتماعية** " ــ إلى غير ذلك من من المعطيات المعرفية المثيرة للجدل ــ في مقابل جوهر الإنسانية في مساعيها ومقاصده . ومن ثم فإن هذه الحداثة وما بعدها مهما توصلت إلى نتائج فإن معظمها ــ حتمـــا ــ ســـيكون

خارج نطاق حاجتنا وهويتنا ما لم تنبع من خصوصيتنا ، والحال هذه ستظل **زبدا يذهب جفاء** . لذلك اعتبر عبد العزيز حمودة أن " ثنائية الانبهار بـ عقل الغربـــي ومنجزاتـــ ، واحتقار العقل العربي الإسلامي ومنجزاته تقع في قلب الشرخ الثقافي الـــذي يعيشـــه الإنسان العربي الإسلامي بدرجات لا تتفاوت كثيرا من جماعة عربية إلـــى جماعـــة عربية أخرى ، وبدلا من منطقة يأخذ فيها المثقف العربي الإسلامي ما يتناسب مـــع ثقافته العربية الإسلامية، وتراثه الطويل ، نجد الغالبية تعيش الثنائية بكـــل تناقضـــاتها وفصامه . صحيح أن هناك قلة بين المثقفين العرب المسلمين لم يفقدهم إنجاز العقـــل الغربي قدرتهم على الاحتفاظ بتوازن صحي بين طرفي الثنائية من منطلق إدراكهم أن إنجازات العقل الغربي ليست خيرا كلها ، وأن إنجازات العقل العربي ليست شرا كلها، وأدركوا أيضا عكس ذلك ، فليست إنجازات العقل الغربي شرا كله ، وليست إنجـــازات العقل العربي خيرا كله .[18]

ولعل عبد العزيز حمودة في محصلة أفكار أنه يتمثل " **اللامقول في القول** " رغبة في البحث عن بدائل معرفية ، ن شأنها أن تـ هم في بناء الأفكار ، سعيا منه إلى البحث عن ضوابط خاصة تتحكم في ممارسة خطاب هويتنا الإسلامي . كما أراد أن ينصـ ف بعض المفاهيم النقـ ية الغربية المفيدة نظير المفاهيم النقدية العربية النافعـ ، ويقدم لهـــا تفسيرا ينهج بها إلى ما يبرر وجودها بين ثقافتنا المعاصرة بوصفـ ا السبيل الوحيد ـــ على الأقل مؤقتـ ، على أمل أن تتبلور الفكرة تباعا ـــ لإعطاء بديل نقدي يعكس هويتنـ .

وفي ـ ضم هذا المنظور ، تشكل دراسة عبد العزيز حمودة نقدا ذاتيا ـــ ليس إلا ـــ بين متن النص الحداثي الهادفـ ، وتأكيد أشكال الحياة الثقافية الذاتية التي تتوافر فيها الشروط المعرفية الناجعـ ، وتعين على فهم علاقة التواصل مع الآخر وبذلك يكون قـــد حاول رأب صدع الحداثيين الذي شق ضميرهم انفجارُ نهر الحداثة الجارفـ . ولـــيس أدل على ذلك من قول الشاعر :

رْأَبُ الصَّدْعَ والثـــأْيَ برَصِـــيرٍ ، مِنْ سَجَايا آرائِ ، ويَغِـــيرُ

---

[18] المرايا المقعر ص 11 .